تلقي المصطلح البلاغي في كتاب " إعجاز القرآن" للباقلاني

The receipt of the rhetorical terms in “The Miraculous Nature of Qur'an’s” book of Al_ Bakillani

تاريخ الاستلام: 2020/11/24؛ **تاريخ القبول:** 2021/01/06

ملخص

تعدّ قضية الإعجاز القرآني الموجّه الأكبر للبلاغة العربية، وذلك لأنها رافقتها لعقود طويلة، وتأتي هذه الدراسة لتؤكد ذلك من خلال البحث في كتاب " إعجاز القرآن" للباقلاني، حيث سنحاول فيها رصد المصطلحات البلاغية التي تضمّنها هذا الكتاب الذي يُعد مؤسسا في مجاله، حيث حاول المُصنِّف أن يقارن الأسلوب القرآني بكلام العرب، وبلاغة القرآن ببلاغة العرب، ليُبيّنَ تميُّزَها عن الكلام المألوف، ويكشفَ مواطن الإعجاز فيها.

الكلمات المفتاحية: إعجاز القرآن؛ بلاغة عربية؛ مصطلحات بلاغية.

*** إلياس الوناس**

حميد قبايلي

1 كلية الآداب واللغات جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، الجزائر.

Abstract

The issue of the Quranic miracles is considered as the most reliable guide to Arabic rhetoric, because it has accompanied it for many decades. By undergoing a descriptive/analytic study of Al-Baqillani’s book, entitled “The miraculous nature of the Qur’an”, we attempt to confirm this issue. We will scrutinize the rhetorical terms presented in this seminal book, where the author compared the speech style of Quran with that of the Arabs, as well as its rhetoric compared with the eloquence of the Arabs; this is done for the purpose of showing its distinction from the ordinary speech and revealing its miracles.

Keywords: Quranic miracles; Arabic rhetoric; rhetorical terms.

Résumé

Dans cet article, nous essayons d'examiner le système éducatif algérien, et d'identifier l'étendue de sa consolidation, et son soutien aux constantes d'identité nationale chez les élèves du secondaire, en examinant l'étendue des manifestations des éléments de l'identité nationale. (histoire, religion, langue) dans les textes de la langue arabe pour les livres de la troisième rentrée secondaire, et si celle adoptée par l'école algérienne a pris en compte l'identité nationale, et les éléments la constituant comme thème principal dans les textes de langue arabe destinés aux élèves du secondaire?

Mots clés : Miracles coraniques ; Rhétorique arabe ; termes rhétoriques..

* Corresponding author, e-mail: fab.01@mail.com

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2021.

I - مقدمة

لقد شغلت قضية المصطلح أذهان النقاد والمفكرين في مجال الدرس اللغويّ، ووضعتهم أمام عدة إشكالات، خاصة مع بروز الدراسات اللغوية الحديثة التي تتسم بطابع العلمية، الذي جعلها رديفة العلوم الطبيعية، وأسقط عنها حجاب المعيارية، وألزمها بالدقة والموضوعية.

ولقد فطن العرب إلى أهمية علم المصطلح منذ عصور متقدمة، ولعلّ من أبرز مظاهر عنايتهم به اجتهادهم في وضع مصنّفات موسوعية تحوي مصطلحات الفنون المختلفة، ومن جملتها: كتاب مفاتيح العلوم الذي وضعه أبو عبد الله محمد الخوارزمي، وكتاب التعريفات للجرجاني، وكشّاف اصطلاحات العلوم والفنون للتهانوي...أما حديثا فقد توسّعت دائرة البحث في المصطلح لتشمل معظم العلوم والفنون، كما أصبحت تتطلب دقة وتجانسا أكثر مما كانت عليه.

وباعتبار البلاغة من أبرز الفنون التي اهتم بها الفكر العربي قديما وحديثا، لارتباطها بالدراسات القرآنية عموما، والإعجاز القرآني خصوصا، شكّل المصطلح البلاغي مثارا للبحث والاستكشاف فيها، خاصة مع ما عرفته البلاغة في ثوبها المعاصر من تطورات خلقت عدة إشكاليات جديدة استدعت الاهتمام بالأصول الاصطلاحية البلاغية التي تسهل عملية البحث في المصادر البلاغية والتي تحمل بين صفحاتها مختلف المعارف التي تتطلب التدقيق حال الوقوف عندها.

وتأتي هذه الورقة البحثية لنتناول بالدرس قضية المصطلح في الفكر البلاغي في بيئة علم الكلام، كتاب" إعجاز القرآن" للإمام الباقلاني عيّنة، حيث نرمي من خلاله إلى الإجابة عن عدة إشكالات، أبرزها:

ما طبيعة المصطلح البلاغي الذي اعتمده المصنّف، وهل هو نتيجة فكر واجتهاد، أم أنَّ له سلفًا في اختياراته؟

إلى جانب ذلك يدفعنا التساؤل إلى البحث عن فرضية راجحة، وهي مدى تأثُّر المصنّف ببيئة علم الكلام _ في وضع المصطلح خصوصا _ بنظرائه من المتكلمين وأقرانه من البلاغيين ومدى إسهام كل ذلك في بلورة الفكر البلاغي قديما وحديثا.

وتهدف هذه الدراسة إلى مكاشفة المصطلح البلاغي في القرن الرابع، ومعرفة طريقة الوضع، أهي قائمة على الاتباع، أم على التفرّد والإبداع، وذلك بغرض التوصل إلى تلمُّس أصالة المصطلح البلاغي من جهة، والمساهمة ولو بالقليل في ضبط المصطلح البلاغي المعاصر من خلال البحث والتنقيب المتواصلين في الكتب التراثية من جهة ثانية.

وبغرض التوصّل إلى نتائج مثمرة لهذا البحث نعتمد على عدة مصادر ومراجع قديمة وحديثة نقصد من خلالها إلى الإحاطة بالموضوع، ممثلة في مصدر البحث، وكتاب "الإيضاح" للخطيب القزويني مع الاستعانة بتعليقات عبد المنعم خفاجي عليه، وكتاب "النكت" للرماني، إلى جانب كتاب "البلاغة تطور وتاريخ" لشوقي ضيف وغيرها....

أ- ترجمة الإمام الباقلاني:

هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني، البصري القاضي المالكي، الفقيه الأصولي المتكلِّم الأشعري. ولد بالبصرة، وتلقى العلم على أعلامها، ورحل إلى بغداد، وأقام فيها حتى قضى نحبه.

تتلمذ على طائفة من العلماء، كأبي بكر الأبهري، ومحمد بن عمر البزار، وعبد الله بن أبي زيد القيرواني، وأخذ عن عبد الله الطائي الأصول وعلم الكلام، وتوفي سنة 403هـ ببغداد.

أشهر مصنفاته: إعجاز القرآن، هداية المرشدين، التبصرة بدقائق الحقائق، البيان عن الفرق، المقنع حقائق الكلام، شرح اللمع، التقريب والإرشاد(1).

ب ـ الوضع البلاغي في عصر الباقلاني:

إن الحديث عن البلاغة في عصر الإمام الباقلاني، يعني بالضرورة الحديث عن قضية إعجاز القرآن الكريم، وما استهلكته من حبر خاصة مع ظهور ونشأة الفرق الكلامية المختلفة، وما دار بينها من معارك فكرية طاحنة، ادّعى كلٌّ واحد فيها أنه صاحب الحق وفق حجج ومسلّمات مختلفة، ووفق أدلة منتخبة انفتح فيها الفكر، وغلبت عليها الفطنة العقلية، بأسلوب الجدل والحوار.

ويُعرف العصر البلاغي للباقلاني بأنه عصر تقدّم الدراسات البلاغية وفق منهجية متميزة، حيث انقسم فيها البلاغيون إلى فريقين، ففي حين تميّز الفريق الأول بالبحث في مسائل الإعجاز القرآني، خاصة مع الباقلاني، والرمّاني في النّكت ورسائل الخطّابي، جنح الفريق الثاني إلى الاعتناء بمسائل اللغة والأدب، على غرار أبي هلال العسكري في الصناعتين، وابن رشيق في العمدة.

ولقد جاء العصر البلاغي للباقلاني بين مرحلتين، أي بعد مرحلة النشأة، أو مرحلة تسجيل الملحوظات كما يسميها شوقي ضيف، وقبل مرحلة ازدهار الدراسات البلاغية وتوهّجها مع عبد القاهر الجرجاني الذي استفاد من إرهاصات سابقيه في وضع نظرية النظم، ومنهم الباقلاني وكتابه "إعجاز القرآن".

وما يعنينا في هذه الدراسة هي المرحلة الثانية ـ أي مرحلة تقدم الدراسات البلاغية منهجيا ـ وبالتحديد مع الاتجاه الأول منها والذي عني بالإعجاز القرآني، وحيث كان من جملة الوسائل التي أُستعملت لإثبات إعجاز الجملة القرآنية، الوسائل اللغوية والبلاغية، ذلك بأن العرب أمة لغة وبيان منذ عصورهم الأولى، كما هو معلوم، حيث برعوا في فن الكلام وبلغوا فيه مبلغا عظيما، حتى تحدّاهم القرآن في جنس ما برعوا فيه.

لقد تميّز عصر الإمام الباقلاني ـ وهو القرن الرابع ـ بضعف الخلافة، وسقوط هيبة الخلفاء، وظهرت الحركات الانفصالية والثورات، وانقسمت الدولة الإسلامية إلى دويلات، حتى لم يبق للخلافة العباسية إلا اسمها(2)، وعلى الرغم من كل ذلك فقد قيل: إنه لم يعرف المسلمون عصرا كالقرن الرابع الهجري، حيث تناقضت فيه حياتهم أشد التناقض، فسدت فيه الحياة السياسية، ولكن نهضت فيه الحياة العلمية والفكرية فكانت من أزهى عصور الثقافة...فمن ذلك ربما أمكننا القول إنه لا ترابط بين سوء الحياة السياسية ورقي الحالة العلمية، ذلك لأن الحياة السياسية إنما تتحسن بتحقق العدل ونشر الطمأنينة بين الناس(3).

أما من جهة علم الكلام، فإنه وبعد مُضي ما يقارب اثنتي عشر عاما على وفاة الخليفة المتوكل الذي زجر المعتزلة، ومنعهم من القول بخلق القرآن، وانتصار مذهب أهل السنة في المقابل، حتى ظهر أبو الحسن الأشعري الذي تربى في أحضان المعتزلة، ثم رفض تعاليمهم في الأربعين من عمره، ليُبعث علم الكلام والجدل من جديد، حتى كانت مجالس الولاة والحكام مسرحا للكثير من المناظرات بين رؤوس الفرق المختلفة(4).

وقد تبنَّى الإمام الباقلاني مذهب أبي الحسن الأشعري ودافع عنه بما جادت قريحته من حجج، واستدلالات عقلية ونقلية، صبغها بلغته العذبة الفصيحة، وبلاغته الساحرة، موظفا كل ذلك في مناطحة الإلحاد ورجال الفرق المخالفة، ومفندا مزاعم المُنكرين لإعجاز القرآن الكريم، فكان لهم سدا منيعا، منافحا عن حياض جملة القرآن.

وبالجملة، فإن ما يمكن أن نستخلصه مما سبق أن البلاغة في هذا العصر قد كانت وسيلة لا غاية، حيث أُستخدمت لفهم النص القرآني ابتداءً، والردّ على الطاعنين في إعجازه، كما اشتدّ عودها في بيئة علم الكلام، أين كان كل إمام يعلم طلبته الافتنان في أساليبها لتكون لهم الغلبة في

المناظرات التي تُعقد مع الفرق الأخرى.

ج ـ كتاب إعجاز القرآن للباقلاني:

يُعد كتاب "إعجاز القرآن" صورة حقيقية لما انتهى إليه مفهوم الإعجاز في الفترة الممتدة من نهاية القرن الرابع، وبداية القرن الخامس، حيث ابتدأ كتابه بمقدمة، استهلها بالثناء على الله ـ عز وجل ـ بما يليق بمقامه، ثم الصلاة والسلام على رسول الله، ليذكِر بعد ذلك أهمية التصنيف في باب الإعجاز، كما عقّب على من سبقوه في التأليف في هذا الباب من علماء اللغة والكلام لأنهم ـ حسبه ـ لم يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزاته، والدلالة على مكانته، مع أن الحاجة إلى ذلك أمس، والاشتغال به أوجب، ممثلا لذلك برسالة للجاحظ في هذا الباب.

وقد قسّم كتابه إلى عدة فصول، استهلها بفصل أسماه: «في أن نبوة النبي معجزتها القرآن»، ذكر فيه أن نبوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بنيت على معجزة القرآن الكريم، مبينا أن باقي معجزاته قد بُنيت على أوقات وأحوال خاصة، أما دلالة القرآن، فهي عن معجزة عامة، عمَّت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين، كما أن معجزة القرآن هي معجزة تحدي، وليس كذلك مع بقية المعجزات([5]).

ثم أعقب المصنف هذا الفصل بجملة من الفصول، يدور أغلبها حول تبيين وجوه الإعجاز في القرآن، ونفي ما يجب نفيه عنه، كالقول بشعريته ووجود السجع فيه، مع ذكر بعض الخطب المتنوعة لما فيها من البيان المستعمل على وجهه الصحيح، ليعقد في الأخير فصلا أسماه: «فصل في كلام النبي وأمور تتصل بالإعجاز».

وقد درج المصنف في كتابه هذا إلى الاعتماد على نفسه في تبيان إعجاز آي القرآن، مع الرجوع إلى الحديث النبوي تارة، وأقوال الصحابة تارة أخرى، لكننا نجده مستغنيا عن ذكر نقولاته ممّن سبقه في التأليف في هذا الباب، أو من أقرانه إلا قليلا، حتى قال عنه الرافعي في" تاريخ آداب العرب": « وجاء القاضي أبو بكر الباقلاني " ت 403 هـ" ، فوضع كتابه المشهور: " إعجاز القرآن" الذي أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب في الإعجاز على حدة، والغريب أنه لم يذكر فيه كتاب الواسطي، ولا كتاب الرماني، ولا كتاب الخطابي الذي كانوا من معاصريه ، وأومأ إلى كتاب الجاحظ بكلمتين لا خير فيهما، فكأنه هو ابتدأ التأليف في الإعجاز بما بسط في كتابه واتسع»([6]).

ورغم كل ذلك كان هذا الكتاب رائدا في بابه في حياته وبعد تطاول الأزمنة عليه، ولعلّ ذلك راجع إلى سَعة العلم التي وُصف بها، والصفة الموسوعية التي تأتَّت له بفعل براعته في مختلف العلوم والفنون، حتى قيل عنه إنه مجدد القرن الرابع.

د ـ الجهود البلاغية في كتاب إعجاز القرآن:

إن تصنيف كتاب "إعجاز القرآن ضمن الكتب المختصة بالإعجاز القرآني لا يعني خلوها من المباحث البلاغية، وإنما يعني عكس ذلك تماما، ذلك بأن البلاغة كانت وسيلة مهمة جدا في بيان ما في آي القرآن من إعجاز، ولئن كان كتاب "إعجاز القرآن" من الكتب التي ألّفت حول الإعجاز، إلا أنه في الوقت ذاته من المصادر البلاغية الأساسية التي نحت بالبلاغة منحى مهما، فأسهمت في تحديد موضوعها واستقراره فيما بعد، فلم يكن ليخلو منها فصل من فصول هذا الكتاب، غير أننا نجد المصنِّف يعقد فصلا من فصول كتابه أسماه: " فصل في وصف وجوه من البلاغة" يظهر فيه المنحى البلاغي للكتاب، فيفصل فيه القول في البلاغة، وموضوعاتها، وأقسامها، فيعرِّف البلاغة على لسان غيره بقوله: « ذكر بعض أهل الأدب والكلام: أن البلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان»([7]).

وأكثر أهل النظر على أن هذا «البعض» الذي لم يشأ المصنِّف أن يصرح به هو معاصره أبو

الحسن علي بن عيسى الرماني المعتزلي، صاحب كتاب" النّكت في إعجاز القرآن" الذي ربط البلاغة بهذه الأوجه العشرة المشهورة.

فيذكر المصنف هذه الأقسام، وُيمثِّل لكل قسم منها، معتمدا في الكثير من ذلك على آيات القرآن الكريم، مستغنيا عن الاستفاضة في شرح الأمثلة المقدمة، فهو يقول في " المناسبة": وأما المناسبة فهي كقوله تعالى: « ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلوبَهُم» سورة التوبة، الآية 127.

وقوله: « يَخَافُونَ يَوْمًا تتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» سورة النور، الآية 37.

وليس ذلك بغريب حتى في مصنّفات اللغة والبلاغة، ذلك بأننا نجد مثلا أن أشهر تعريفات الشِّعر التي وصلتنا هي القائلة بأنه: «الكلام الموزون المُقفَّى»، رغم أنّ أغلب النقاد يصرحون أنّ هذا التعريف غير كاف، بل هو في حاجة إلى زيادة تعريف وشرح، في حين أنّ الأوائل لم يجدوا حرجا في الاستغناء عن ذلك الشرح، وذلك راجع بالأساس إلى تغيّر الظروف، وتباعد الأزمان، وإنما استغنى أصحابه عن الإطالة فيه لكون الشِّعر معلوما عند عوامّهم وخواصّهم، كيف لا وهو يقال أمام جنبات بيوتهم صباح مساء.

ويواصل المصنّف عرض آراء الرّماني مع التعقيب عليها، حيث يشير مجددا إليه بأسلوبه التلميحي، فيقول:

« إن البعض يرى أنه من الممكن التوصل إلى إعجاز القرآن من خلال هذه الوجوه» ليذكر بعد ذلك موقفه الرافض لهذا الرأي، ثم يقرر أن هذه الوجوه العشر تنقسم إلى قسمين:
1_قسم يمكن الوقوع عليه والتعلم له، ويدرك بالتعلم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به.
2_ قسم ثان لا سبيل إليه بالتعلّم من البلاغات، فذلك هو الذي يدل على إعجازه، ويضرب لذلك مثلا، بأننا لو قلنا : بأن ما في القرآن من تشبيه معجز في ذاته، فسوف يعرض علينا بما في الأشعار من تشبيهات رائعة، ويُمثِّل لذلك بما في شعر ابن المعتز من تشبيه بديع يشبه السحر([8]).
ويقرر بعد ذلك، أنّ مثل هذه الوجوه البلاغية ليست معجزة في حدِّ ذاتها، وإنّما المعجز في هذه الوجوه هو:
أولا: حسنها البالغ وسموها، وثانيها :ارتباطها واتساقها مع بقية الكلام، على نحو بالغ الروعة والتكامل، بحيث لا يُحسُّ القارئ بأيّ قدر من التفاوت البلاغي في هذا الكلام الرّباني، الذي يضارع بعضُه بعضا في البلاغة والفصاحة.

ويحصر المصنّف الوجه البلاغي للإعجاز القرآني (أي بديع نظمه) في وجوه عشرة، يرجع بعضها إلى القرآن في جملته، وبعضها يرجع إلى بعض أساليبه، وبعضها يرجع إلى مفرداته، وبعضها يرجع إلى حروفه، فمما يرجع إلى جملته، كونه خارجا عن المألوف من كلام البشر، والمعروف من تنظيم خطابهم، فليس هو بالشعر ولا بالنثر وليس هو بالسجع...إلى آخر ما هو معروف للبشر من أجناس الكلام([9]).

ومهما كانت مسائل البلاغة منثورة ومفرّقة بين فصول وصفحات الكتاب، فإن كتاب "إعجاز القرآن" يُعد محاولة جادة للتأسيس للبلاغة العربية، في الإطار الذي أريد لها أن تكون فيه، كما يُعد أيضا تأسيسا لنظرية النظم التي وضع عبد القاهر الجرجاني لبناتها بعد ذلك، واتكأ على هذا الكتاب، بوصفه أكثر كتب الإعجاز نضجا، فأثمر نظرية كرَّم فيها اللاحق جهود السابق.

هـ ـ المصطلحات البلاغية في كتاب إعجاز القرآن:

بعد اطلاعنا على كتاب إعجاز القرآن، ومحاولة استقراء المباحث والآثار البلاغية فيه، وجدنا حضورا لأغلب المسائل البلاغية، وإن كان تقسيم الباقلاني مختلفا عن التقسيم الثلاثي المعتمد عند جمهور المتأخرين، فإننا ارتأينا في البداية أن نعمد إلى إرجاع كل مصطلح إلى واحد من أقسام البلاغة الثلاثة، حسب ما اِستقرَّ عليه تقسيم المتأخرين لها، غير أننا آثرنا بعد تمعُّن أن نترك كل مصطلح على حاله مثلما فعل المصنِّف نفسه، بالنظر إلى كونه لا يعتمد هذا التقسيم

خاصة بإطلاقه مصطلح البديع على البلاغة كلّها، وذلك يُعد من صميم منهجه الذي اعتمده في هذا الكتاب، كما سنسعى إلى التعريف بكل مصطلح بحسب ما ورد في حقّه من تعريف في كتب بعض الأقدمين مع الإشارة إلى قول المصنِّف فيه، بالنّظر إلى كون منهج الباقلاني قائماً على التّمثيل للمصطلح دون تعريفه في الكثير من الأحيان:

1 - البديع:

وقد ارتأينا أن نبتدئ خوضنا في المصطلحات البلاغية الواردة في هذا الكتاب بهذا المصطلح وإن كان المصنّف لم يشر إلى تعريفه إشارة واضحة، كوننا وجدنا المصنف مضطربا في مصطلح "البديع"، فهو يطلقه وغالبا ما يريد به المفهوم العام الذي كان متعارفا عليه في عصره، فيشمل عنده كل المباحث والفنون البلاغية، ويضمّ مباحث علوم البلاغة الثلاثة، وذلك لأنها لم تكن قد تحدّدت واستقلّت في زمانه كما هو حال جلّ العلوم الأخرى، وهو الحال مع ابن المعتز الذي وضع كتاب "البديع" وجمع فيه كل أقسام علم البلاغة، لكنه يورده في سياقات توحي أنه يقصد به القسم الثالث من أقسام علم البلاغة.

ومهما يكن الشأن فإننا نجد المصنِّف يقرر المذهب الأول في مواضع عدة، منها قوله في" فصل في كيفية الوقوف على إعجاز القرآن": «إنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادّعوه في الشِّعر ووصفوه فيه، وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلّم والتدرّب به والتصنّع له...أمّا شأو نظم القرآن فليس له مثال يُحتذى عليه ولا إمام يُقتدى به ولا يصحُّ وقوع مثله اتفاقا»([10]).

فهو هنا يتحدّث عن كيفية الوقوف على إعجاز القرآن، ويقول: «إنه لا يقف عليه إلاّ من عرف معرفةً بيّنةً وجوه البلاغة العربية وتكوَّنت له فيها مَلَكة يقيس بها الجودة والرداءة في الكلام بحيث يميّز بين نمط شاعر وشاعر، وبحيث يعرف مراتب الكلام في الفصاحة»([11]).

إن الباقلاني يعترض اعتراضا واضحا على ما ذهب إليه الرُّمَّاني وغيرُه من تفسير إعجاز القرآن بما تضمَّنه من وجوه البلاغة وصور البديع، كما أشار في سياق آخر إلى ناحية بلاغة النظم التي تعتمد على وحدة النص والالتحام الموجود بين عناصر النص، وهذا يبَّن لنا بوضوح أن الباقلاني كان يهدف إلى دراسة قضيّة الإعجاز القرآني بمنهج جديد يقوم أساسا على مخالفة ما كان سائدا عند الدارسين في هذا الباب ممّن سبقوه وعاصروه لاعتقاده أنهم قد جانبوا الصواب، وخاصة المعتزلة منهم، وابتداع طريقة جديدة في العرض تميزّه عن غيره، ولا يكون له ذلك إلا بالاستفادة من آراء ومبادئ المذهب الأشعري.

ومَفاد فكرته وجوهرها أن الإعجاز لابد أن يتحقّق في كل آية من آيات القرآن طالت أم قصرت، لأن البلاغة لا تتبيّن بأقلّ من السورة أو ما كان بقدرها، أما هذه الوجوه البلاغية التي ذكرها الرُّمَّاني فلا اعتبار لها في الحكم على إعجاز القرآن أو عدمه لأنها توجد في بعض الآيات دون بعض.

ثم يضيف بعد ذلك بقوله: «إننا لو سلَّمنا بأن إعجاز القرآن يظهر بهذه الوجوه، فإن ذلك يعني مساواة كلام رب العالمين بكلام البشر، لأنه يجوز أن يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة تباين جميع ديوانه في البلاغة، ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه، ولا يعرف سبب ذلك البيت ولا تلك القطعة في التفصيل، ولو أراد أن يأتي بمثل ذلك أو يجعل جميع كلامه من ذلك النظم لم يجد إلى ذلك سبيلا»([12]).

2- الكناية:

ويربطها المصنف عند الحديث عنها بمصطلح التعريض، فيقول «الكناية والتعريض»([13])، ولم نقف على تعريف لأحدهما في الكتاب، سوى أنه مَثَّل لهما بشاهد واحد هو قول الشاعر:

وَأَحمَرَ كَالديباجِ أَمّا سَماؤُهُ فَرَيّا وَأَمّا أَرضُهُ فَمُحولُ([14])

ويبدو أنّ المصنّف قد نحا نحو أبي هلال العسكري الذي جمع بينهما في فصل واحد عقده في الصناعتين، الذي يعرّف التعريض بقوله: «والتعريض هو أن يُكنى عن الشيء ويُعرّض به ولا يُصرّح، على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء»([15]).

وأما الكناية فقد قال فيها الجاحظ: وقد يستعمل الناس الكناية وربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة، يريدون أن يظهر المعنى بألين لفظ إما تنوها وإما تفضّلا كما سموا المعزول مصروفا والبخيل مقتصدا([16]).

وكما سبَقت الإشارة إليه سابقا، أنّ المصنّف يتحاشى في الكثير من الأحيان تقديم تعريفات أو تفصيلات، ولعلّ ذلك راجع كما أسلفنا إلى كون المصطلح معروفا مشهورا، ومن ثمّ لم يجد أي لازمة لذكره.

3- المطابقة:

وفيها قال المصنِّف: وأكثرهم – أي البلاغيين - على أن معناها أن يذكر الشّيء وضِدّه، كالليل والنهار، والسواد والبياض، وإليه ذهب الخليل بن أحمد والأصمعي([17])... كقوله جلَّ جلاله: « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» سورة الروم، الآية 19.، وكذلك قوله عزّ وجلّ: «... يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ...» سورة الحج، الآية 61.

ومن الواضح هنا أن الباقلاني يقصد ما اتَّفق عليه المتأخرون بالطباق كما يصرح الخطيب القزويني بذلك في الإيضاح([18])، ويصرّح الباقلاني بعد ذلك بنقله لهذا المصطلح عن ابن المعتز.

والواقع أن للمطابقة معنيين في علم البلاغة، أحدهما مساواة المقدار، وثانيهما الجمع بين الشيء وضده، فقد ذكر الأصمعي المطابقة في الشعر، فقال: أصلها وضع الرِّجل موضع اليد في مثنى ذوات الأربع، ثم قال: وأحسن بيت قيل لزهير في ذلك([19]):

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ الرجالَ، إذا ما الليثُ كَذَّبَ عن أَقْرانه صَدَقا([20])

قال الخليل: «يقال: طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد وألصقتهما، فذلك هو مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان»[21]، وهو مذهب الرُّمّاني الذي يخالف الباقلاني أيضا، إذ يقول: «المطابقة مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان»، ويعقب ابن رشيق على تعريف الرُّمّاني، فيقول: «هذا أحسن قول سمعته في المطابقة، وهو يشتمل على قول القوم وغيرهم جميعا»([22]).

ويرى عبد المنعم خفاجي في تعليقه على كتاب الإيضاح أن الأصمعي هو أول من سمّى المطابقة بهذا الاسم، وأراد بها المعنى الثاني.

4- الموازنة:

وقد اكتفى الباقلاني في تحديدها بتقديم ثلاثة أمثلة دون أي بسط لمعناها، والحق أنّ الموازنة، تُعد قرينة للسجع، وحدها أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن([23])، وهو ما ذهب إليه القزويني في الإيضاح، بقوله: «هي أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التّقفية»([24])، ومن الأمثلة التي قدّمها الباقلاني: قول امرئ القيس:

سَلِيمِ الشَّظى، عَبْلِ الشَّوى، شَنِجِ النَّسا له حَجباتٌ مُشْرِفاتٌ على الفالِ([25])

ونظيره من القرآن، قوله عزّ وجل: «والسَّمَاء ذَاتِ، الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ،وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ» سورة البروج، الآيات 1-3

5- التّجنيس:

ومعناه أن تأتي بكلمتين متجانستين، وهو أنواع، أحدها ما تكون الكلمة تجانس الأخرى في تأليف

حروفها ومعناها، وإليه ذهب الخليل([26])، ومنهم من قال إن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق، كقوله عز وجل: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ...» سورة الروم، الآية 43.

وقوله تعالى: « ... وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ...َ» سورة النمل، الآية 44.

ومن الحديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم «غِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ، وَعُصَيَّةُ عَصَتِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ»([27]).

ومن الشعر، قول القُطامي:

فلما رَدَّها في الشَّولِ شالت بذيَّالٍ يكونُ لها لِفاعا([28])

وَيتَّضح من خلال هذا الكلام أنّ ما اصطلح عليه الباقلاني بالتجنيس هو ما عرفه غيره باسم الجناس كما هو الحال عند القزويني الذي يقسّمه إلى تام وناقص، فأما التام فهو أن تتفق الكلمتان في الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها، كقول أبي سعيد المخزومي:

حدق الآجال آجالُ والهَوَى للمَرْءِ قتَّالُ([29])

فالأول جمع أجل بالكسر وهو القطيع من بقر الوحش، والثاني جمع أجل والمراد به منتهى الأعمار.

أما إن اختلفا في أعداد الحروف، فإنه يسمى ناقصا([30])، كقول ابن المعتز:

سَأُثني عَلى عَهدِ المَطيرَةِ وَالقَصرِ وَأَدعو لَها بِالساكِنينَ وَبِالقَطرِ([31])

وهو كذلك ما أسماه أبو هلال العسكري بالتعطُّف.

6- المقابلة:

ويعرفها الباقلاني بأنها تكون بأن يوفَّق بين معان ونظائرها، والمضاد بضدّه، ومن أمثلة ذلك قول النابغة الجعدي([32]) :

فَتىً تَمَّ فيهِ ما يَسُرّ صَديقَهُ عَلى أَنَّ فيهِ ما يُسيءُ المُعادِيا

ونظيره من القرآن قوله تعالى: «... ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ، ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ» سورة النحل، الآيتان53-54

فالمقابلة إذاً هي أن يُؤْتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم يُؤْتى بمقابل ذلك المذكور من المعنيين المتوافقين، أو المعاني المتوافقة على الترتيب (والمقصود بالمعاني المتوافقة هنا: المتضادة)([33]).

7- الاستعارة:

و اكتفى المصنف عد ذكرها بالقول إنها مما يباين التشبيه، ومنها قوله تعالى:«وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا» سورة الفرقان، الآية 23.

قال الرماني: «وحقيقة قَدِمنا هنا: عمدنا، وقدمنا أبلغ منه، لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر؛ لأنه من أجلّ إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم، ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم، وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال، والمعنى الذي يجمعهما العدل؛ لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل، وأما قوله: "هباءً منثورا" فبيان قد أخرج ما لا تقع عليه حاسة إلى ما تقع عليه حاسة»([34]).

ومن الآيات التي ذكرها أيضا في بيان مصطلح " الاستعارة":

قوله عز وجل:« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ» سورة الأنبياء، الآية 18.

فالدمغ والقذف مستعار([35])، قال الرماني: «القذف والدمغ هاهنا مستعار، وهو أبلغ، لأن في

القذف دليل على القهر، لأنك إذا قلت: قذف به إليه، فإنما معناه ألقاه إليه على جهة الإكراه والقهر، فالحق يُلقى على الباطل، فيزيله على جهة القهر والاضطرار، لا على جهة الشك والارتياب، ويدمغه أبلغ من يُذهبه، لما في يدمغه من التأثير فيه، فهو أظهر في التكأة، وأعلى في تأثير القوة»([36]).

8- المماثلة:

قال فيها أنها ضرب من ضروب الاستعارة، وذكر فيها أن قدامة قد تطرق إليها قبله، لكن تحت مسمى التمثيل، حيث كان يدلّل به على الاستعارة التمثيلية، ورغم مخالفته لقدامة إلا أن أبا بكر الباقلاني في اختياره مصطلح المماثلة قد وافق أبا هلال العسكري في ذلك([37]).

والمماثلة هي على العكس من الإرداف، لأنّ الإرداف مبني على الإسهاب والبسط، وأما المماثلة فتُبنى على الإيجاز والجمع، وتكون بأن يُقصد الإشارة إلى معنى، فيضع ألفاظا تدل عليه، وذلك المثال بألفاظه مثال للمعنى الذي قصد الإشارة إليه([38]).

ومثال ذلك من المنثور: أن يزيد بن الوليد بلغه أن مروان بن محمد يتلكأ عن بيعته، فكتب إليه: «أما بعد، فإني أراك تقدّم قدماً وتؤخّر أخرى، فاعتمد على أيتها شئت»([39]).

ومثاله من الشعر:

قول زهير:

وَمَن يَعصِ أَطرافَ الزُجاجِ ينلنهُ يُطيعُ العَوالي رُكِّبَت كُلَّ لَهذَمِ([40])

وكقول امرئ القيس:

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إلاَّ لِتَضْرِبِي بِسَهْمَيْكِ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ([41])

9- التشبيه:

هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل([42])، أو هو الدلالة على مشاركة أمر ما لآخر في معنى، والمراد به هنا هو ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية، ولا الاستعارة بالكناية ولا التجريد([43]).

كقوله تعالى: « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا» سورة النور، الآية 39.

وقوله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ» سورة إبراهيم، الآية 18.

ففيها بيان أخرج فيه ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، فاجتمع المُشبَّه والمُشبَّه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة([44]).

ورغم الأهمية البالغة لباب التشبيه في البلاغة إلا أننا لم نقف على تفصيل يُذكَر من المصنّف سوى أنه أكثر وأفاض في ذكر الأمثلة والشواهد بغرض التوضيح دون أن يعقّب عليها، أو يذكر أقسام التشبيه وأنواعه، وربما يعود ذلك إلى كون باب التشبيه معلوما بين الناس لشهرته وسهولة إدراكه.

10- المساواة:

وقد قال في تعريفها: «هي أن يكون اللفظ مساويا للمعنى، بحيث لا يزيد عليه ولا ينقص، وذلك يعد من البلاغة»[45]، ولا يكاد يذكر وجود أي خلاف بين القدماء في تحديد ماهية المساواة رغم اختلاف تعريفاتهم لفظا إلا أنها لا تخرج عن المراد منها، حيث يُعرّفها العسكري:" بأن تكون المعاني بقدر الألفاظ، والألفاظ بقدر المعاني، بحيث لا يزيد بعض على بعض، وهو المذهب

الوسط بين الإيجاز والإطناب"([46]).

ويستفيض المصنِّف بعد ذلك في التمثيل لبيان معنى هذا المصطلح، ومما ذكره، قول جرير:

فَلَو شاءَ قَومي كانَ حِلمِيَ فيهِمُ كانَ عَلى جُهّالِ أَعدائِهِم جَهلي([47])

وقول زهير:

وَمَهما تَكُن عِندَ اِمرِئٍ مِن خَليقَةٍ وَإِن خالَها تَخفى عَلى الناسِ تُعلَمِ([48])

11- المبالغة:

واكتفى المصنف بالقول فيها إنها تأكيد معاني القول([49])، « والمبالغة أن يدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدًّا مستحيلا أو مستبعدا لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف»([50])...

كقول الشاعر عمرو بن الأيهم التغلبي:

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا ونُتْبِعُهُ الْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالاَ([51])

وكقول أوس بن غلفاء مخاطبا يزيد بن عمرو بن الصعق:

وَهُمْ تَرَكوكَ أَسلَحَ مِن حُبارَى رَأَت صَقراً وَأَشرَدَ مِن نَعامِ([52])

فقوله: "رأت صقرا " من المبالغة.

والجدير بالذكر أن مصطلح المبالغة في أبواب البلاغة مرتبط أيما ارتباط بباب الغلو، حتى أننا وجدنا الخطيب القزويني في "الإيضاح" يورد الشاهد الشعري الذي جعله الباقلاني أولا في باب المبالغة، في باب الغلو، ثم يُعقِّب عليه بقوله: «فإنه ادعى أن جاره لا يميل عنه إلى جهة إلا وهو يتبعه الكرامة، وهذا ممتنع عادة، وإن كان غير ممتنع عقلا...»

وحقيقة رأيه هذا هو أن الخطيب يعتقد أن كلا من التبليغ والإغراق والغلو هي أقسام للمبالغة([53]).

12- الالتفات:

ذكر ابن المعتز في تعريفه: «أنه انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك، أو الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر»([54]).

قال الباقلاني: «ومتى خرج عن الكلام الأول ثم عاد إليه على وجه يلطف كان ذلك التفاتا»([55]).

قال المصنّف: ومن أمثلة الالتفات ما كتب إلي الحسن بن عبد الله العسكري، أخبرنا محمد بن يحي الصُّولي، قال: حدثني يحي بن علي المنجم، عن أبيه عن إسحاق بن إبراهيم، قال: قال الأصمعي: أتعرف التفاتات جرير؟ قلت: لا، فما هي؟ قال:

أَتَنسى إِذ تُوَدِّعُنا سُلَيمى بِفَرعِ بَشامَةٍ سُقِيَ البَشامُ([56])

ومثل ذلك لجرير أيضا:

مَتى كانَ الخِيامُ بِذي طُلوحٍ سُقيتِ الغَيثَ أَيَّتُها الخِيامُ([57])

ومعنى الالتفاتات أنه اعترض في الكلام، فقوله: «سُقيت الغيثَ» لو لم يعترض فيه لما كان ذلك التفاتا، وكان الكلام منتظما، وكان يقول: « متى كان الخيام بذي طلوح أيتها الخيام» فمتى خرج عن الكلام الأول ثم رجع إليه على وجه يلطف سمي ذلك التفاتا»([58]).

ومثاله من القرآن قوله عز وجل: « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ

اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ... » سورة المائدة، الآيتان 38 - 39.

وقوله تعالى: «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا» سورة إبراهيم، الآيات 19-21.

13.التلاؤم:

وهو تعديل الحروف في التأليف، وهو على ضربين، أحدهما في الطبقة الوسطى([59])، كقول "أبي حية النميري":

رَمَتْنِي وسِتْرُ اللَّه بيني وبينَها عشِيَّةَ آرامِ الكِنـاسِ رمـيمُ

رميمُ التي قالتْ لجاراتِ بيتِها ضمِنْتُ لكم ألاّ يزالُ يهـيمُ

ألا رُبَّ يومٍ لو رَمَتْني رميتُه ولكنَّ عهدي بالنِّضالِ قـديمُ([60])

وأما المتلائم في الطبقة العليا: فهو القرآن كله، وإن كان بعض الناس أحسن إحساسا له من بعض، كما أن بعضهم يفطن للموزون بخلاف بعض([61]).

وحدّ التلاؤم هو «حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، ووقع المعنى في القلب، وذلك كالخط الحسن والبيان الشافي، فإذا أضيف إلى التلاؤم حسن البيان وصحة البرهان في أعلى الطبقات، ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع، وبصيرا بجواهر الكلام، كما يظهر له أعلى طبقة الشعر»([62]).

والحق أننا نلاحظ بوضوح في هذه العبارات تأثرا واضحا من قبل المُصنِّف بفكرة الرماني القائلة بتقسيم البلاغة إلى بلاغات دنيا هي بلاغة العامة، ووسطى هي بلاغة البلغاء، وعليا هي بلاغة القرآن، ومما يزيد ذلك تأكيدا، هو تصدير المصنف الحديث عن هذه المستويات، بقوله: « قالو»، وهي كلمة لطالما كان يستعملها المصنف في الإشارة إلى الرماني نفسه ليتحاشى ذكر اسمه بعد ذلك.

14- التنافر:

قال المصنف: وهو نقيض التلاؤم، وذهب الخليل إلى أنه من بعد شديد، أو قرب شديد، فإذا بَعُد، فهو كالطّفر، وإذا قرُب جدا كان بمنزلة مثنى المقيّد، ويبين بقرب المخارج وتباعده([63]).

وهو كقول الشاعر:

وقَبرُ حَربٍ بمكانٍ قَفرٍ ولَيسَ قُربَ قَبرِ حَربٍ قَبرُ([64])

وقد بلغ حد التنافر في هذا البيت أن قالوا: هو من شعر الجن، لأن حروفه متنافرة، وبالتالي لا يمكن إنشاده إلاّ بتتعتع فيه([65])، وكان للرماني نفس الرأي في التعقيب على هذا البيت، وقال:«وإنما ذكروا أنّ هذا من أشعار الجن، لأنه لا يتهيأ لأحد أن يُنشده ثلاث مرات فلا يتتعتع»([66]).

15- الفواصل:

ذكر المصنّف أن الفواصل هي حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني، وفيها بلاغة، والأسجاع عيب، لأن السجع يتبعه المعنى، والفواصل تابعة للمعاني([67]).

ثم ذكر أنّ الفواصل قد تقع على حروف متجانسة، كما قد تقع على حروف متقاربة؛ ولا تحتمل القوافي ما تحتمل الفواصل، لأنها ليست في الطبقة العليا في البلاغة، لأنّ الكلام يحسن فيه بمجانسة القوافي وإقامة الوزن([68]).

16- التضمين:

هو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم، أو صفة هي عبارة عنه، وذلك على وجهين:

أحدهما تضمين توجبه البنية، كقولنا: «معلوم»، يوجب أنه لابد من عالم، وتضمين ثان يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلاّ به، كالصفة بضارب على مضروب([69]).

والتضمين كله إيجاز، حتى أنه ذُكر أنّ التضمين الذي تدلّ عليه دلالات القياس أيضا إيجاز([70]).

كما ذُكر أيضا أنّ" بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ " من باب التضمين، لأنّه تضمن تعليم الاستفتاح في الأمور باسمه على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى، أو التبرك باسمه، وأنه أدب من آداب الدين، وشعار المسلمين، وأنه إقرار بالعبودية واعتراف بالنعمة التي هي من أجلّ نعمه، وأنه ملجأ الخائف، ومعتمد للمستنجد([71]).

قال الرماني: «والتضمين كله إيجاز استغني به عن التفصيل؛ إذ كان مما يدل دلالة الأخبار في كلام الناس، وأما التضمين الذي يدل عليه دلالة القياس فهو إيجاز في كلام الله عزّ وجلّ خاصة؛ لأنه تعالى لا يذهب عليه وجه من وجوه الدلالة، فنصبه لها يوجب أن يكون قد دل عليها من كل وجه يصح أن يدل عليه، وليس كذلك سبيل غيره من المتكلمين بتلك العبارة؛ لأنه قد يذهب عنها دلالتها من جهة القياس، ولا يخرجه ذلك عن أن يكون قد قصد بها الإبانة عما وُضعت له في اللغة من غير أن يلحقه فساد في العبارة»([72]).

17- الإرداف:

وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ هو تابع له، ورِدفٌ([73]).

كما في عجز بيت امرئ القيس:

..... نَؤوم الضحى لم تنتطقْ عن تفضُّلِ([74])

قال قدامة في نقد الشعر: «وإنما أراد امرئ القيس أن يذكر ترفه هذه المرأة، وأنّ لها من يكفيها، فقال: نؤوم الضحى، وإن فتيت المسك يبقى إلى الضحى فوق فراشها، وكذلك سائر البيت، فهو يريد أنها لا تنتطق لتخدم، ولكنها في بيتها متفضلة، ومعنى عن في هذا البيت معنى بعد»([75]).

خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية حسبنا أن نذكر أنّ تجربة البحث في مجال إعجاز القرآن للباقلاني قد كان لها صدى، لم يكن لغيرها من المصنفات الأخرى، وحسبنا أن نشير فيما يأتي إلى بعض النقاط التي وقفنا عليها في هذا الكتاب:

_ يُعد كتاب " إعجاز القرآن" للإمام الباقلاني منارة حقيقية لمن يريد الغوص في مباحث الإعجاز القرآني، فقد وجدنا المصنّف يربط أبواب البلاغة بأبواب الإعجاز بشكل سبق إليه غيره من المصنفين ممن بحثوا في إعجاز القرآن.

_ تعتبر المرحلة التي التفت فيها البلاغيون إلى العناية بالإعجاز القرآني مرحلة تأصيلية ساهمت في بلورة الفكر البلاغي، وضبط المصطلح، وإن غلب الاختلاف في ذلك بين البلاغيين، إلاّ أنّ الصراع الذي دارت رحاه بين الفرق المختلفة، قد كان له الأثر الواضح في التجدد والتطور المستمر الذي مرت به البلاغة العربية.

_ لم يلتزم المصنّف بما قرره في بداية كتابه من كون الكتاب إبداعا لم يكن لأحد ممن سبقوه، أو عاصروه قدم سبق فيه، فعلى الرغم من أنّه تحاشى في الكثير من الأحيان ذكر مصادر نقولاته، إلا أنّها كانت واضحة، خاصة ما تعلق بما نقله عن معاصره الرماني.

_ على غرار المسائل البلاغية التي وردت في ثنايا الكتاب مشتتة، جاءت المصطلحات أيضا متناثرة بين صفحات الكتاب في أوله وآخره.

_ تجنّب المصّنف عند ذكر المصطلحات البلاغية أن يقدم تعريفات، أو يستفيض في شرح المسائل والشواهد المقدمة، ولعلّ ذلك راجع إلى وضوح هذه المسائل في عصره.

_ أكثرَ المصنّف في كتابه من اعتماد المصطلحات، والتعريفات التي وضعها خاصة كل من الرماني وأبي هلال العسكري، بالرغم من أنّه لم يشر إلى أحد منهما.

_ عندما يطلق المصنّف مصطلح " البديع" لا يريد به القسم الثالث من أقسام البلاغة، وإنما يقصد به البلاغة ككل، فهو يوافق ما كان رائجا في عصره، من أنّ البديع اسم جامع لكل مسائل البلاغة، كما جاء في كتاب ابن المعتز الذي عنونه بـ" البديع"، وجمع فيه معظم مسائل البلاغة.

_ اعتمد المصنف في وضعه للمصطلحات البلاغية على تقنية الانتقاء، بحيث يطلع على المصنفات السابقة، فينقل ما جاد منها دون تعصب للرأي، وذلك واضح من خلال نقله عن بعض من خالفه من الفرق الكلامية الأخرى.

الهوامش:

[1] ـ ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1972م، ج4، ص269، وابن العماد: شذرات الذهب، تح عبد القادر الأرناؤوط ومحمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، 1986م، ج3، ص168، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2001م، ج5، ص379.

[2] ـ ينظر: أبو بكر الباقلاني، الانتصار للقرآن، تح: محمد عصام القضاة، دار ابن حزم، بيروت، ج1، ص 9.

[3]ـ ينظر: الباقلاني: الانتصار للقرآن، ص22ـ 23.

[4] ـ ينظر: حسن حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1935م، ط1، ج3، ص218.

[5]ـ ينظر: أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ص8.

[6]ـ الرافعي: تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان، مصر، 1997م، ج2، ص153.

[7]ـ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص262.

[8] ـ ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص275.

[9] ـ ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص276.

[10]ـ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص111.

[11]ـ ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط9، ص112.

[12]ـ ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن: ص276.

[13] ـ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص98.

[14]ـ الطفيل الغنوي: ديوان الطفيل الغنوي شرح الأصمعي تح: حسّان فلاح أوغلي، دار صادر بيروت، لبنان، ط1997،1، ص136«هذا البت من الشعر المروي لطفيل الغنوي، وليس في ديوانه، يصف فرساً أحمر، وشبهه بالديباج في حسن لونه وملاسة جلده، وأراد بسمائه: أعاليه، وبأرضه: قوائمه، وشبه قوائمه لقلة لحمها بالأرض المحل التي لا نبات فيها...»

[15]ـ أبو هلال العسكري: الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، 1952م، ص310.

[16]ـ الخطيب القزويني: الايضاح، ج5، ص185.

[17] ـ ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص122.

[18] ـ ينظر: الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، شرح عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3، 1993م، ج6، ص7.
[19] ـ ابن رشيق: العمدة، تح محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ج2، ص6.
[20] ـ زهير بن أبي سلمى: ديوان زهير، شرح وتقديم علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م، ص77.
[21] ـ ابن رشيق: العمدة، ج2، ص6.
[22] ـ ابن رشيق: العمدة، ج2، ص6.
[23] ـ ينظر: ابن الأثير: المثل السائر، تح: بدوي طبانة وأحمد الحوفي، دار نهضة مصر، ج1، ص414.
[24] ـ القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ج6، ص112.
[25] ـ امرؤ القيس: ديوان امرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط4، 1984م، ص32.
[26] ـ ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 83.
[27] ـ بدر الدين العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ضبط وتصحيح: عبد الله محمود، دار الكتب العلمية، ج7، ص38.
[28] ـ القطامي: ديوان القطامي، تح إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، دار الثقافة، بيروت، ص39.
[29] ـ القزويني: الإيضاح، ج6، ص91.
[30] ـ ينظر: القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ج6، ص90، 91.
[31] ـ ابن المعتز: ديوان ابن المعتز، دار صادر، مصر، ط1، ص192.
[32]ـ النابغة الجعدي: ديوان النابغة الجعدي، تح واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط1، 1998، ص188.
[33]ـ ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن: ص88.
[34] ـ الرماني، الخطابي، الجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، 1976م، ص79- 80.
[35] ـ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص267.
[36] ـ الرماني: النكت في إعجاز القرآن، تح عبد الله عباس الندوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص51.
[37] ـ ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص78.
[38] ـ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص78.
[39]ـ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص78.
[40] ـ زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، ص111.
[41]ـ امرؤ القيس: ديوان امرئ القيس، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط4، 1984م، ص31.
[42]ـ الباقلاني: اعجاز القرآن، ص264.
[43]ـ القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ج4، ص16.
[44]ـ الرماني: النكت ي إعجاز القرآن، ص6.

[45]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص89.
[46]- أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص173.
[47]- جرير: ديوان جرير، شرح: محمد الصاوي، مطبعة الصاوي، مصر، ط1، ص462.
[48] - زهير بن أبي سلمى: ديوان زهير، ص111.
[49]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص91.
[50]- القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ج6، ص60.
[51] - ابن رشيق: العمدة، ج2، ص52.
[52] - قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص51.
[53]- القزويني: الإيضاح، ج6، ص62.
[54]- ابن المعتز: البديع، ص80.
[55] - ابن المعتز: البديع، ص106.
[56] - جرير: ديوان جرير، ص512.
[57] - جرير: ديوان جرير، ص512.
[58] - الباقلاني: إعجاز القرآن، ص99.
[59]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص262.
[60] - أبو حية النميري: ديوان أبي حية النميري، تح: يحي الجبوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1985م، ص172- 173.
[61]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص262.
[62]- الباقلاني: إعجاز القرآني، ص263.
[63] - الباقلاني: إعجاز القرآن، ص264.
[64]- البيت مجهول النسبة، بل نسب إلى الجنّ، وحر: هو حرب بن أمية بن عبد شمس والد أبي سفيان بن حرب.
[65]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص264.
[66]- الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص407.
[67]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص409.
[68]- الباقلاني، إعجاز القرآن، ص410.
[69]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص273.
[70] الباقلاني: إعجاز القرآن، ص273.
[71] - الرماني: النكت في إعجاز القرآن، ص64.
[72] - الرماني: النكت في إعجاز القرآن، ص64.
[73]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص71.
[74]- امرؤ القيس: ديوان امرئ القيس، ص17.
[75]- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، مطبعة الجوائب، القسطنطنية، ص57.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم: رواية حفص عن عاصم.

1. ابن الأثير: المثل السائر، تح بدوي طبانة وأحمد الحوفي، دار نهضة مصر.
2. امرؤ القيس: ديوان امرئ القيس، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط4، 1984م.

3. بدر الدين العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ضبط وتصحيح: عبد الله محمود، دار الكتب العلمية.
4. أبو بكر الباقلاني: الانتصار للقرآن، تح محمد عصام القضاة، دار ابن حزم، بيروت.
5. أبو بكر الباقلاني:إعجاز القرآن، تح السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر.
6. جرير: ديوان جرير، شرح محمد الصاوي، مطبعة الصاوي، مصر، ط1.
7. حسن حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1935م، ط1.
8. أبو حية النميري: ديوان أبو حية النميري، تح: يحي الجبوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1985م.
9. الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، شرح عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3، 1993م.
10. ابن خلكان: وفيات الأعيان، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1972م.
11. الرافعي: تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان، مصر، 1997م.
12. ابن رشيق: العمدة، في محاسن الشعر ونقده، تح محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت.
13. الرماني، الخطابي، الجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، 1976م.
14. الرماني: النكت في إعجاز القرآن، اتح عبد الله عباس الندوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
15. زهير بن أبي سلمى: ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م، ص111.
16. شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط9.
17. ابن العماد: شذرات الذهب، تح عبد القادر الأرناؤوط ومحمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، 1986م.
18. الطفيل الغنوي: ديوان الطفيل الغنوي، شرح الأصمعي تح: حسّان فلاح أوغلي، دار صادر بيروت، لبنان، ط1997،1،
19. قدامة بن جعفر: نقد الشعر، مطبعة الجوائب، القسطنطنية، ص57.
20. القطامي: ديوان القطامي، تح إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، دار الثقافة، بيروت.
21. ـ النابغة الجعدي: ديوان النابغة الجعدي، تح واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط1، 1998.
22. أبو هلال العسكري: الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، 1952م.